175333 ـ معنى " كان " في مثل قوله تعالى (وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

السؤال

يكثر في القرآن استخدام كلمة " كان " عندما نتحدث بعض صفات الله تعالى مثل (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً) ونحن نعلم أن " كان " تفيد الماضي ، والغريب أنها تُترجم إلى الإنجليزية على أنها في المضارع وليس في الماضي ، فما توجيهكم لهذا ؟ .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

لفظة " كان " لا تدل دائماً على الماضي المنقطع ، وإن كان هذا هو المشهور الغالب في استعمالها ، وقد جاء ذِكرها في كلام العرب وفي كتاب الله تعالى بمعنى " لم يزل " وهي تدل بذلك على " الاستمرارية " لا الانقطاع ، ومنه قوله تعالى (وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً) الإسراء/ 11 ، فهل يعني ذلك انقطاعه عن الإنسان ؟! ، ومنه قوله تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) الإسراء/ 53 ، فهل انقطعت عداوة الشيطان للإنسان وكانت في فقط في زمن مضى ؟! ، وأولى ما يتعيَّن هذا المعنى فيه هو فيما إذا جاءت في سياق أسماء الله تعالى وصفاته .

روى البخاري في صحيحه (6/127) : عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ:
" إِنِّي أَجِدُ فِي القُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ .... وَقَالَ: وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 96] ، عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: 56] ، سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: 58] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟ " .
فأجاب ابن عباس رضي الله عنه عن مسائله ، فقال فيها :
" وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 96] سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ ؛ أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلاَ يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " انتهى.

قال أبو حيان الأندلسي – رحمه الله ـ : " (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) فـ " كان " تدل على اقتران مضمون الجملة بالزمن الماضي ، وهو تعالى متصف بهذا الوصف ماضياً وحالاً ومستقبلاً ، وتقييد الفعل بالزمن لا يدل على نفيه عن غير ذلك الزمن " انتهى من " تفسير البحر المحيط " (5 / 487) .

وقال السيوطي – رحمه الله ـ : " تختص كان بمرادفة " لم يزل " كثيراً ، أي : أنها تأتي دالة على الدوام ، وإن كان الأصل فيها أن يدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى ، مع انقطاعه عند قوم ، وعليه الأكثر ـ كما قال أبو حيان ـ ، أو سكوتها عن

الانقطاع وعدمه عند آخرين ـ وجزم به ابن مالك ـ ، ومن الدالّة على الدوام : الواردة في صفات الله تعالى نحو (وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) النساء/ 134 ، أي : لم يزل متصفا بذلك " انتهى من " همع الهوامع " (1 / 437 ، 438) .

وقال محيي الدين درويش – رحمه الله ـ : " " كان " في القرآن على خمسة أوجه :
1. بمعنى الأزل والأبد نحو (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) النساء/ 17 ، وغيرها .
2. بمعنى المضيّ المنقطع نحو (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ) النمل/ 48 .
3. بمعنى الحال نحو (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) آل عمران/ 110 .
4. بمعنى الاستقبال نحو (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) الإنسان/ 7 .
5. بمعنى صار نحو (وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) البقرة/ 34 ، ص/ 74 " انتهى من " إعراب القرآن وبيانه " (10 / 318) .

ومن العلماء من يرى أن لفظة " كان " في مثل السياقات السابقة تكون مسلوبة الزمن ، وهي تدل بذلك على تحقيق ما جاءت في سياقه .
قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله ـ : " ثم قال (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) ، وقوله (كَانَ) هذه فعل ، لكنها مسلوبة الزمن ، فالمراد بها : الدلالة على الوصف فقط ، أي : أن الله متصف بالسمع والبصر ، وإنما قلنا : إنها مسلوبة الزمن لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية لكان هذا الوصف قد انتهى ، كان في الأول سميعًا بصيرًا أما الآن فليس كذلك ، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد باطل ، وإنما المراد : أنه متصف بهذين الوصفين " السمع " و " البصر " على الدوام ، و (كان) في مثل هذا السياق يراد به التحقيق " انتهى من " مجموع فتاوى الشيخ العثيمين " (8 / 172) .

فصار معنى مثل تلك الآيات أن الله تعالى كان ولا يزال متصفاً بتلك الصفات ، وأن دلالة الكلمة على الفعل الماضي لا يمنع دلالتها على الحاضر والمستقبل ، أو يقال : هي مسلوبة الزمن في هذه السياقات والمراد بها تحقيق الصفات .

وتبين مما سبق ذِكره ونقله أن ترجمة الفعل " كان " إلى المضارع صحيح لا وجه للاعتراض عليه وأن ترجمتها بالماضي لمن لا يفقه لغة العرب هو الذي يوقع في الإشكال .

والله أعلم .